رسائل ثقافية

سوريا : من محمد حيدر

شهدنا في السنوات الماضية، وعلى صفحات الجرائد والمجلات ، كثيراً من المناقشات الادبية التي كانت تتوقد حيناً وتخبو في اغلب الاحيان . ومع انها مناقشات جوفاء ، فقد كانت تثير الحماسة وتجمع حولها نفراً من القراء . ولكن يبدو ان الكلام قد انهك الجوقة ، فركن افرادها منذ زمن طويل الى الهدوء .

هذا موجز النشاط الادبي : الركود .

فاذا علمنا ان هذه المناقشات لم تكن عن الادب، ولا من الادب في شيء ، ادركنا مدى المهزلة والمأساة . ان الحقيقة الصريحة عن الوضع الادبي في سورية ، هي : لا ادب – هذا اذا عنينا بالادب الموهبة والابداع ، لا مجرد الكتابة الادبية فحسب. لان الادب الموجود لا يخرج عن كونه محاولات سطحية لا تحمل ، على كثرتها ، اي بارقة ببزوغ موهبة اصيلة .

وضع ادبائنا اشبه ما يكون بقصة الغراب ، الذي فقد هويته في محاولته التشبه بالحمام . والمثال مقصود للضياع فحسب ، ضياع ادبائنا بين الجمهور والصفوة : فاذا كان الجمهور يفصح عن دخيلته بممارسة المتع الغريزية الحسية ، وباستسلامه لليومي البليد ، فان الصفوة تعيش باستمرار توترها الحي، وتفصح عن دخيلتها بالفن. ولكن ادباءنا يشكلون طرفا ثالثا يتوسط الاثنين : اقدامهم غائصة في ارض الجمهور ، ورؤوسهم مشدودة الى سماء الفنان؛ ان لهم قلق الفنان وحماسته ، لذلك لا يستطيعون اقصاء الوعي ، والتحول النهائي الى الجمهور. ولكن ليس لهم موهبة الفنان ، لذلك يخيبون في الخلق وفي التعبير . وهكذا يظلون في حالة صراع ، متأرجحين بين الطرفين .

بعضهم يمارس الكتابة ، ولكنها كتابة سطحية وتافهة ، يفوح منها بخار الجنس واستغاثات القلق : الجنس الناجم عن الحرمان ، والقلق المتولد عن الحيرة .

وبعض آخر يمارس النقد ، ولكنه نقد يقوم على المديح او السباب ، لا بدافع ادبي ، بل بدافع الصداقة الشخصية او العداء .

والبقية من فئة ادبية جديدة ، فئة المتذوقين : اذ يزعمون بأن لهم موهبة التذوق الادبي والقدرة على التقويم . وهم ابعد ما يكون عن الامرين ، ويحشرون انفسهم مع « الادباء » على هذا الاساس.

المقهى هو المكان الوحيد لهؤلاء . يتحلقون حول المائدة في نقاش لا ينقطع : عن الشعر ، والموسيقى ، والاتجاهات الادبية ، وآخر روايات العصر . وهم لعجزهم عن الابداع الفني يقنعون منه بهذا القدر ، بالحديث عنه . ويخلق لديهم هذا الوضع شعورا وهميا بالابداع ، فيحسبون ان حديثهم عن الادب والفن هو ابداع في . وبالتالي يطلبون من العالم تقديرا لشخصياتهم على هذا الاساس . وبما ان هذا لا يشكل رصيدا حقيقيا

من الادب ، فان املهم يخيب لعدم وجود تقدير لهم . لذلك نراهم مسحوقين بمشاعر الكآبة والضجر ، ويفتعلون القلق ، ويتحدثون عن العبث والمأساة .

ولم تستطع النوادي ، على كثرتها ، ان تؤدي الى تطور يذكر . والسبب في ذلك ان نشاط هذه النوادي يقوم ، بداهة ، على الكتاب والمفكرين والنقاد . ولانعدام الموهوبين ، فان المحاضرات او المناظرات او الندوات التي قدمتها النوادي ظلت في حدود التفه والاجترار . ثم ان هذه النوادي لم تنشأ اصلا لغايات ادبية ، بل كان الغرض منها الحصول على « الوجاهة الاجتماعية » تحت ستار الادب . فالمستمعون يذهبون الى هذه النوادي بدافع الخجل من المحاضر نفسه او من المشرفين على النادي او للظهور بمظهر المهتم بالادب والفكر .

وقد تألفت في سورية هيئات وجمعيات ادبية متعددة ، بعضها تلاشى بصورة طبيعية ، وبعضها لا يزال موجودا ، ولكن على الورق . وتجتمع هذه الهيئات وتضع التوصيات وتقر الحلول ، ولكنها تظل ايضا حبرا على ورق . ولقد لعل الناس والادباء خيرا من المجلس الأعلى للآداب وهو هيئة حكومية ـ ولكنه لم يقدم شيئا بل كان مجالا خصبا للحصول على المراكز ولسياسة التنفيع ، وهذا ما دفع الدولة لتجميد نشاطه تمهيداً للالغاء . الهيئة الوحيدة في سوريا التي تقدم نشاطا ادبيا حقيقيا وخدمات ادبية هي وزارة الثقافة والارشاد القومي (مديرية التأليف والترجمة والنشر) وذلك بترجمتها للادب العالمي ، وبيع كتبه بأسعار رخيصة ، وبفتح المراكز الثقافية في القرى والمدن ، للمطالعة المجانية ولالقاء المحاضرات ، وثم بشراء نتاج الكتّاب ونشره .

وجريا على الزي الشائع ، فان الصحف كافة تخصص للادب صفحة في الاسبوع . وما ينشر فيها عادة لا يخرج عن كونه مجموعة من الالفاظ : لانعدام الموهوبين من الكتاب ، ولان المشرفين على الصحف يفضلون ذلك لملء الفراغ .

اما المجلات فأهمها « الناقد » ، وهي مجلة قد ساهمت منذ اكثر من عشر سنوات مساهمة فعالة في تنشيط الحركة الادبية . وفضلها على الادب انها أتاحت الفرصة لكل الكتاب الناشئين ؛ ومعظم الاسماء المعروفة اليوم بدأت في « الناقد » (سابقا : « النقاد ») ، ولكنها فقدت اليوم كثيراً من دورها السابق ؛ لان الذين بدأوا فيها وكانوا ناشئين ، اصبحوا اليوم ـ على حد زعمهم ـ كباراً ، ولم يظهر للآن ناشئون جدد . ثم « الثقافة » ، وهي مجلة شهرية ، وينشر فيها الكبار والناشئون على السواء . وفضلها انها استمرت سنوات ، رغم كل المصاعب التي تواجه اية مجلة ادبية ، مع العلم ان شخصا واحدا يقوم باعبائها . وقد نشرت هذه المجلة على حسابها عديدا من الكتب ، لشبان لايستطيعون نشر نتاجهم . وهي بذلك تساهم مساهمة جدية وفعالة في خدمة الكتاب وفي تنشيط الادب . ثم « المعرفة » ، وهي مجلة حكومية تصدرها وزارة الثقافة والارشاد ، ضمن مخططها لتطوير الفكر والادب . وقد استطاعت هذه المجلة رغم حداثتها ان تحتل مكانة مرموقة بين المجلات الادبية الكبيرى في العالم العربي كله ، لاحتوائها على بحوث ومقالات رصينة قوية قلّ ان توجد في مجلة اخرى . ويعود ذلك لجهود رئيس تحريرها الاديب فؤاد الشايب ولأن لها من الامكانيات ما ليس لغيرها من المجلات .

اما ابرز الاحداث الثقافية في الاسابيع الأخيرة ، فهي هذه :

محاضرة الدكتور غسان رفاعي في صالة الفن الحديث بعنوان « آراء معاصرة في الحرية » ، قدم فيها عرضا لبعض النظريات المعاصرة في الحرية وحاول ان يربط بينها وبين الاتجاهات الجديدة في الفكر العربي المعاصر . وتلخص محاضرته بتعليل : السؤال الذي يجب ان يطرح في جدية قاسية هذه

الايام ، هو هل هناك توازٍ واضح بين التقـــدم كمضمون تاريخي له استقلاله وبين القيم التي تحاول ان تنتظم داخل هـــذا التقدم ؟ ويمكننا ان نضع السؤال بصيغـــة اخرى اكثر دلالة على الروح المعاصرة : ما العلاقة بين التاريخ والانسان ؟ بين التاريخ كحتمية هوجاء لا تبالي بما تفرضه من انظمة وقوانين ، وبـــين الانسان كحرية وبداءة ولغز . ان الفلسفة المعاصرة قد اقامت التاريخ مقابل الانسان ، حينما فصلت بين الماهية والوجود، واذا كان الوجود قد ربح المعركة في مؤلفـــات الوجودية بصورة عامة ، وساوتر بصورة خاصة ، فان التاريخ قد حقق استمرار جريانه في الحركات الثورية التي اندلعت في اغلب انحاء العالم على وجه التقريب . على ان اهم ما يسترعي الانتباه هو ان المؤمنين بفلسفـة التاريخ قد وضعوا الجماهير في شراستها وعنفها وعفويتها مقابل الحرية في حدودها المطلقة . حتى لكأن الجماهير في دخولها التاريخ نفي للحرية الوجودية ذاتها . ان كتاب فانون « الملعونون في الارض » يمكن ان يعتبر في ضوء هذا التفسير اضخم عمل فكري جدي في العصر الحديث . يتحدث فانون عن تصفية الاستعمار وكأنه الحدث الاكبر دلالة على ثورة الجماهير ، ولعل الفكرة الجدية التي يقدمها فانون هي اصراره على رفض القيم الاوربية ، باعتبارها تجميداً للحرية الانسانية . الحرية الاوربية هي حرية الانسان المفرد ، في حين ان الحرية الافريقية الآسيوية هي حرية الجماهير . وكأنها استرداد للهوية الانسانية ذاتها ، هوية شعب بأسره .

ومعرض لرسوم نعيم اسماعيل اقامتـه وزارة الثقافة في صالة الفن الحديث . درس نعيم اسماعيل في اكاديمية الفنون الجميلة في تركيا ، وبعد التخرج عاد الى سوريا عام ١٩٥٥ ، ويعتبر هـــذا العام بدء نتاجه الفعلي . وقد بدأ اتجاهه الفني في محاولة لابراز الطابع العربي والخصائص العربية المتعلقة بالرسم . ونتيجة لاختيار الطابـع العربي في الاسلوب وجد الفنان نفسه مرغماً « على اختيار المضمون الشعبي ايضا » ، مما يكشف فكرة اساسية في كل فن جديد في بلادنا : ان الاصالة الفنيـــة تعني في الوقت نفسه اكتشاف الاسلوب المحلي الذي يتلبس القضية الشعبية . ولكن الفنان لم يحصر هذا الاتجاه في محلية ضيقة ، بل تخطاه وربطه بالافاق الفنيـــة العالمية ، وذلك لوجود التقاء بين الفن العالمي الحديث وبين الجذور العربية ، وذلك من جهة التشخيص ومن جهة الاكتفاء بالعناصر الأساسية للرسم : الخط والشكل واللون ، ويتجلى الاتجاه في محاولته التوحيد بين التشخيص والتجريد . ويتألف المعرض من ٧٢ لوحة مختلفة المساحات . وهي بصورة عامة توكيد لاتجاهه الفني العربي ، ويمكن اعتبـــار المعرض نواة لمدرســـة عربية حديثة . موضوع اللوحات : حياة القرية في بلادنا ، وهي تتميز بتوازن جديد بين الالوان ، وذلك بالنسبة لرسومه في بدء حياته الفنية. ومن ناحية التأليف والتركيب، تتميز اللوحات بقوة ظاهرة تجعـــل البناء متماسك الاجزاء ومنسجما مع المساحات اللونية . على ان اهم ما يستلفت النظر في المعرض ان اللوحـــات ، حتى في اجزائها ، الخطوط والألوان ، توحي بتجربة فنية اصيلة ذات طابـع متميز .

ومهرجان ابي فراس الحمداني الذي اقامـــه المركز الثقافي في حمص ، والقى فيه حامد حسن قصيدة بعنوان « تحية لابي فراس » وقدمت فرقة مسرح حمص مشهدا مسرحيا عن موته .

واجتماع « جمعيـــة الادباء » في دمشق ، التي تألفت منذ ثماني سنوات ، وهو الاجتماع الذي رفعت فيه الجمعية توصيلتها الى المسؤولين لاحداث جوائز متعددة ، على غرار جوائز الكتاب اللبناني . وقد ظهرت اولى نتائج جهود الجمعية في امرين : اولهما احداث جائزة سنوية قدرها خمسة آلاف ليرة باسم جائزة فارس الخوري ، وذلك لأفضل مؤلف فكري ادبي ؛ وقد أقرت هذه الجائزة . وثانيهما جائزة الجمعية نفسها وقدرهـــا الف ليرة لأفضل نتاج ادبي ، قصة كان او رواية .